الفصل الثاني

جَوَلان القبائل العربية

أو ما يسمي بـ ((الهجرات السامية))

درج المؤرخون على الحديث عن ((هجرات سامية)) متتالية من شبه جزيرة العرب إلى منطقة (الهلال الخصيب) الذي يمتد على شكل قوس من الخليج العربي شرقاً، مروراً بسوريا الطبيعية، وانتهاءً بدلتا نهر النيل في مصر غرباً.

خرجت تلك الهجرات، حسب رأي المؤرخين، على شكل طفرة سكانية متكررة خلال فترات زمنية معينة، وقد أجمع المؤرخون على القول:

أ - حوالي 3500ق.م اتجهت هجرة سامية من شبه جزيرة العرب نحو الشمال الشرقي (العراق وأقامت هناك ما يسمى بالدولة الأكادية جنوب العراق في المنطقة السومرية.

ب- ثم بعد ذلك وحوالي 2500 قبل الميلاد، حصلت هجرة أخرى من البادية أتت بالعموريين ليتوزعوا في سوريا الشمالية ومنهم الفينيقيون، والكنعانيون في سوريا الجنوبية. لكن الكنعانيين ليسوا من العموريين ولم يكن وطنهم فلسطين كما سنرى عند الكلام عنهم.

جـ - وحوالي 1500 _ 1200ق.م خرجت جماعات أخرى من شبه جزيرة العرب، عرفت باسم ((الآراميون)) الذين استقروا في سوريا الداخلية ومنطقة دمشق.

د - وحوالي 500 ق.م دفعت هجرة جديدة بالعرب الأنباط، ليستقروا جنوب البحر الميت وشمال شرق (سيناء) عند مفترق القوافل التجارية، وكانت عاصمتهم البتراء التي لا تزال خرائبها قائمة إلى الآن.

هـ _ كان آخر اندفاع من شبه جزيرة العرب على مقياس واسع، ذلك الذي حصل في القرن السابع الميلادي، تحت راية الإسلام، انتشر هذا السيل ليشمل (سوريا والعراق ومصر وشمال إفريقيا وبلاد فارس وبعض أجزاء من آسيا شرقاً وإسبانيا غرباً).

وقد أجمع المؤرخون على جعل أسباب تلك الاندفاعات هو ((عامل الجفاف)) دون أن يبحث أولئك عن زمن ما قبل الهجرات المزعومة، فكيف يمكن أن نتصور أي جفاف يحدث ثم يختفي على مدى ألف عام، ثم يظهر فجأة ليدفع بموجة جديدة من قلب الجزيرة العربية إلى منطقة الهلال الخصيب أو إلى سورية لإقامة صرح حضاري جديد؟!.

وكيف يمكن أن يُحدث مثل ذلك التجمع القبلي البدوي الهائل دوياً حضارياً فور وصوله إلى المناطق، دون أن يُسمع بذكره في مكان وجوده السابق؟!.

فإذا عدنا إلى علم الجغرافيا والمناخ، نجد أن ظاهرة الجفاف لا يمكن أن تحدث فجأة بل كان ذلك يجري في عملية بطيئة استغرقت آلاف السنين.

ويعلق الدكتور أحمد داوود في كتابه ((تاريخ سوريا القديم)) على موضوع الهجرات السامية فيقول: ((في الواقع إن هجرة القبائل، لم تحدث على النحو الذي صورتها المصادر التاريخية، بل كان ذلك يتم على شكل جولان في كل الاتجاهات وإن هذا الجولان الدائم والمستمر دون انقطاع، جعل تلك الجماعات المتحركة بمثابة مستودع بشري متحرك وعلى تماس دائم ومباشر مع تخوم المناطق المستقرة. مما أتاح الفرصة دائماً لعملية ((الارتشاح)) بحيث يتم امتصاص كل العناصر التي نضجت فيها إرادة الاستقرار، والتخلي عن حياة الرعي والتنقل، مع العلم أن البدوي لا ينتج حضارة قبل الاستقرار على الأرض. وإن الاستقرار عملية طويلة ومعقدة بكل جوانبها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والنفسية، ولا تتم بين ليلة وأخرى)).

وإذا عرفنا أن الأرض العربية أرض مكشوفة ومفتوحة لكل القبائل العربية، تتحرك فيها في كل الاتجاهات، أدركنا أن حركة تلك القبائل أو استقرارها لم تكن نتيجة حرب أو غزو أو اغتصاب، بل كانت نتيجة ظروف أملتها شروط البيئة، وأنماط الحياة، ضمن المنطقة التي بقيت حتى يومنا هذا تسمى (الوطن العربي). وإن سكان هذه المنطقة هم من أصل واحد هو العرق العربي.

والخلاصة فإن الحركة السكانية التي ملأت الأرض العربية منذ فجر التاريخ إنما هي حركة جولان وتنقل دائم ولم تكن في ما مضى هجرات أطلق المؤرخون عليها ظلماً وخطأ اسم ((الهجرات السامية)). وتلك الحركة هي التي رسمت حدود الوطن العربي منذ آلاف السنين، دون أن تتعداها إلى أرض أخرى، وقد حافظت على وحدة الوطن العربي وعلى عروبته.

ولم تتمكن أية قوة من أن تقف حائلاً دون هذه الحركة الداخلية، التي بقيت على مدى العصور بمثابة الدم الجوال في عروق البدن الواحد.

وإن نظرة واحدة على تواجد وتوزع وانتشار وتحرك وجولان قبائل مثل ((عنزه أ وشمّر أو عرب النعيم)) أو غيرها من القبائل العربية اليوم، تعطينا صورة واضحة عن تحرك وانتشار القبائل العربية منذ القديم وحتى الوقت الحاضر.

ولو أنصف المؤرخون فتخلّوا عن أهدافهم الاستعمارية، لأمكنهم أن يتخيلوا حركة الجولان والانتشار هذه قبل آلاف من السنين، وإن قيام حكومة في (ماري أو دمشق أو إيبلا أو بابل، أو أكاد أو سومر. لم يكن يعني خلو بقية الأرض العربية، بل بقيت دائماً تعج بحركات القبائل ضمن إطار الوطن العربي الكبير التي رسمت حدوده بحركاتها وجولانها وحافظت على تلك الحدود.